



الثورة الثقافية قادمة بعد وباء الفيروس التاجي

بوريس سايرولنيك*

مقدمة

على الرغم من تجربته وتقدمه في السن، لم يتوقف بوريس سايرولنيك عن توسيع مجالاته الفكرية ونشر معارفه.

تدور فكرته الأساسية حول «الصمود». هذا المفهوم، الذي يحتاج إلى المرونة في الفهم وفي الممارسة، كما يقول، يجب أن ينتقل إلى علم النفس، أو إلى التعليم، أو إلى علم الاجتماع؛ فتجربة الصدمة التي نعيشها حالياً مع الأزمة الصحية لهذا الوباء، تفرض تعميم مفهوم الصمود؛ لينتقل المجتمع إلى صحوة، أو إلى قفزة ما بعد الأزمة.

* Boris Cyrulnik: طبيب فرنسي، أحد أبرز المتخصصين في الطب النفسي العصبي، مُحلّل ومُعالج ومُحاضر، له من العمر 82 عاماً، اشتهر في مؤلفاته وأبحاثه بالتركيز على تعميم مفهوم «الصمود» ونشره، الذي يعني بالنسبة إليه عودة الولادة من المعاناة. أطلق عليه بعض أصدقائه «المُحلّل الوطني» أو «مُحلّل الأمة». النّص هو مقابلة أجرتها معه مجلة الأسبوع «La Semaine» الفرنسية في 16/5/2020م، ترجمة طلال عتريسي.

نريد أن نسألك كيف حالك؟

«مثل الكثير من الناس، أنا أتأقلم، أو - على الأقل - أحاول التكيف مع الحبس بمزيج من الملذات المذهلة والقلق. المتعة المذهلة هي أنني أكتشف، أو بالأحرى أعود إلى اكتشاف متعة الصمت. أعيد اكتشاف متعة البطء. أعيد اكتشاف متعة الحياة الذاتية؛ لأنني، مثل الكثيرين، كنت في سباق سريع. أنتقل من مقال إلى آخر، ومن اجتماع إلى آخر، ومن طائرة إلى قطار. لكن المواعيد ألغيت خلال الأسابيع الماضية. لذلك، اكتشفت من جديد متعة إيقاعي البطيء، والحياة الذاتية المختلفة تمامًا حيث المتسع من الوقت، ومع ذلك، أشعر بألم الصمت.

أشعر بقلق الغرابة، عندما لا يزال لدي الحق في الخروج للسير بمفردي في الشارع، وفي الوقت نفسه قلق اللاحياة؛ لأنني الشخص الوحيد الذي يمشي. التقيت بعدد قليل جدًا من الناس. هذا يُذكرني بمشاهد من أفلام الخيال العلمي لراي برادبري، حيث تسود اللاحياة، وحيث يُمنح نصف كوكب المريخ لشخص واحد؛ لأنه لا يوجد سكان، أو يوجد القليل جدًا منهم.

إنها سعادة مجنونة بالنسبة إلى ذلك الشخص لا يملكه نصف الكوكب، لكنه في الوقت نفسه كرب مجنون؛ لأن اللاحياة موجودة هناك أيضًا. هذا هو بالضبط ما أشعر به الآن.»

ما الوضع الذي نعيشه الآن؟ كيف تصفه؟

«إن كلمة حرب مناسبة، لكن هناك حروب مختلفة، منها ما هو ضد العدو المرئي، الأجنبي، الغازي، ضد من يريد أن يفرض علينا قانونه. في مثل تلك الحالات، ستكون إستراتيجيتنا التكيف، أو الفرار، أو الاختباء،... يمكن أن نستحضر بسهولة حكاية الطاعون في العام 1848م في مرسيليا، وكيف قتل ذلك الوباء وقتها واحدًا من بين كل اثنين من الأوروبيين. وأدى إلى «اضطراب ديموغرافي وجغرافي»، وأنتج طريقة أخرى في التفكير في الحياة والمجتمع؛ بينما نحن اليوم في حالة حرب مع عدو لا نراه. وفي مثل هذه الحالة تكثر الأقوياء. هكذا كان الحال غالبًا عبر التاريخ. عندما نعود إلى زمن الأوبئة مثل الطاعون، أو التهاب الدماغ في العام 1918م، الذي تسبب بعشرات ملايين الوفيات، فإن المجنون، أو الغريب، أو اليهودي، أو الأجنبي الذي لا يفكر مثلنا كان يُتهم بأنه السبب في

انتشار الوباء؛ بينما في حالتنا اليوم، الأمر أكثر تعقيداً. لذا، حتماً ستنشأ مخاوف، وسنتظر ظاهرة كبش الفداء، كما هو الحال في فرنسا اليوم، ضدّ رئيس الوزراء ووزير الصحة السابق اللذين يتحمّلان مسؤوليّة عدم استباق الأمور».

هل يتميّز مجتمعنا بالواجهة أكثر أم بالصمود؟

«إطلاقاً، تعريف الصّمود هو استئناف التطوّر الجديد بعد الصدمة. عندما نخرج من الوباء، سوف ندخل في الصمود مع مواجهة السؤال الآتي: كيف سنتعلّم العيش مُجددًا؟ سوف يكون هناك وفيات وخراب في مؤسّسات الدولة. ماذا سنفعل لبناء ثقافة جديدة؟ إنّها في الوقت الحالي، معركة البحث عن سبل وقائيّة لتقليل عدد الوفيات والخراب. يوجد بيننا أشخاص دخلوا الحجر وهم يحملون عوامل الضّعف (من خلال مرض، أو بطالة، أو أسر مفكّكة) هؤلاء سوف يخرجون بصدمة إضافيّة. وعلى العكس من ذلك، بالنسبة إلى من كانوا في أسر متماسكة، أو لديهم وظيفة وعمل، فسوف يخرجون بسهولة أكبر ويستعيدون حياتهم الطبيعيّة. على أيّ حال، لن يكون لدى النّاس وظيفة بعد الآن، وسوف تكون عليهم ديون أو سينهارون. لذا، سنخرج بالضرورة جميعاً من هذه الأزمة وقد تغيّرنا».

هل هي عمليّة منطقيّة في محاولتنا أن نكون مُتّحدين، وأن نعمل بشكل جماعيّ لخلق موجات من التضامن والشكر؟

«نعم؛ لأننا لا نستطيع العيش من دون الآخرين. عندما تحصل العزلة الحسيّة، في حالة السجناء، مثلاً، أو الأطفال المُشرّدين، يتوقّف الدماغ عن العمل وينطفئ. وإذا استمرّت العزلة مرحلة طويلة، سوف تحصل أحياناً تغييرات عصبيّة ونفسية خطيرة جداً. لذلك، نحن نعيد تجميع صفوفنا. في كل الحروب، أو المِحْن تولد آليات التضامن. نجتمع معاً للدّفاع عن أنفسنا. يجب علينا أيضاً أن ننظر إلى الماضي. ففي الحرب التي حصلت في العام 1940م هُزم الجيش، وتمجّدت المقاومة بعد الحرب؛ في الحرب ضدّ المرئيّ مقابل غير المرئيّ، التضامن حتميّ. هذا يسمح لنا بالحفاظ على الأمل ومواجهة المصائب. وهي أيضاً طريقة بطوليّة. أنظر إلى الأدب في ذلك الوقت من التاريخ! عن ماذا يتكلّم؟ عن الأبطال، والجنود، والشخصيّات المقاومة، أمثال: جان مولان. لذلك، نرى أننا في كل حرب، نصنع أبطالاً».

في هذه الحرب ضدّ الفيروس الذي يصيبنا اليوم، أبطالنا هم مُقدّمو الرّعاية الصحيّة. وهم مثل كلّ الأبطال، يُبادرون بالتّضحية من أجل حياة الآخرين. ففي الأعوام 1914م-1918م، قدّم النّاس الزهور إلى الجنود، وعانقوهم. وعلى الرّغم من ملايين الوفيات في بضعة أشهر، دون احتساب المعوّقين، ذهب الجنود إلى أداء واجبهم، كما يفعل مُقدّمو الرّعاية الصحيّة اليوم. وها نحن المرضى نُحييهم. ولنستمع إلى شهادات أول من تعافى من كوفيد 19 - . إنهم يتصرّفون بالطريقة نفسها، ويعبرون عن شكرهم بأيديهم ومن أعماق قلوبهم!«.

هل سنستخلص العبر ونتراجع اليوم عن فرديتنا القصوى من أجل صمود جماعيّ غدًا؟

«طبعًا، هذا هو السبب في أنّ ثورة ثقافية ستتع هذا الوباء. سوف نتساءل عن كلّ ما تشكّلت منه ثقافتنا القديمة. أنا أتحدّث عن الماضي، هل كان تراكم كلّ تلك الأشياء ضروريًا في حياتنا؟ هل كان من الضروريّ إيقاظ الأطفال في الساعة السادسة صباحًا حتى يتمكّن الآباء والأمّهات من الركض، والاندفاع في وسائل النّقل، والعمل بحثًا عن إشباع فرديّ يضعف الروابط الأسريّة؟! وهل كان من الضروريّ الذهاب إلى تايلاند لمدة أسبوعين والتقاط الفيروسات ونشرها?!«.

هل يمكن أن نُؤمن بهذا التّغيير على المدى الطويل؟!

«لا يمكن لهذا إلّا أن يتغيّر؛ لأنّ فرنسا دُمّرت، سترتبّ علينا دين لمدة 20 أو 30 عامًا. وبعد ذلك، سنكتشف ظاهرة كبرى سوف تُثير نقاشات فلسفيّة رائعة وعاطفيّة للأسف: إنّ الوجود الإنسانيّ ليس فوق الطبيعة».

هل سنكون منطقيين؟

«إذا كنّا سنفكر بأنّ من الضروريّ العمل بجهد إضافيّ للحاق بالركب، فهذا هو الاتجاه الصحيح نحو وباء جديد! وإذا بدأ الاقتصاد مرّة أخرى كما كان من قبل، فإنّنا نعرف ما سوف يحدث... يجب أن يجتمع العالمان السياسيّ والاقتصاديّ حول طاولة واحدة؛ لنفكر بطريقة مختلفة: استهلاك أقلّ للثروة الحيوانيّة، مع استهلاك المزيد من الخضروات، واعتدال غذائيّ، وسياحة أقلّ، ونقل أقلّ،...».

أين إنسانية الإنسان؟

«عندما كنت طالباً في كلية الطب، وكنت أعمل لإعالة نفسي، قام بعض أصدقائي بنسخ المحاضرات لي بالكربون. إنه أمر لا يمكن تصوّره على الإطلاق اليوم! فالطالب الغائب عن القاعة هو منافس أقلّ. الأمر نفسه في الشركات الكبيرة، حيث يكون العدوّ شرّاً بالقدر نفسه. لقد نسينا تماماً أنه لا يمكننا العيش من دون الآخرين. أدّى نسيان التضامن إلى أزمة السّترات الصفراء، إلى أناس غير سعداء، وإلى تدنّي أجورهم، وعزلهم عن المجتمع. [...] لقد نسينا أيضاً الرياضة، التي كانت وظيفتها التقريب بين الناس، وأصبحت مشهداً خاضعاً لكل قواعد الإنتاج الرأسماليّ. الشيء نفسه بالنسبة إلى الفن: حفلات موسيقيّة لـ 100,000 شخص.. أين ذهب البُعد الإنسانيّ؟!

أعترف أنني لمرحة مُعيّنة كنت جزءاً من تلك الآلة الجهنميّة كنت أعمل على متن الطائرات، وفي سيارات الأجرة، وفي الليل، وكلّ ذلك بأقصى سرعة. كان لديّ نوع من الحماس للقيام بذلك. مع هذه الأزمة، اكتشفت من جديد متعة التآني، والعمل بسلام على موضوع ما، وأن ألاحظ بروية أنّ هناك الكثير من الأمور التي تحصل على المستوى الإنسانيّ.

لنساءل، هل كان من الضروريّ الإفراط في زراعات مؤذية؛ لتناول كمّيات كبيرة جداً من اللحوم في الوقت الذي تضعف فيه الزراعة، مثل ما يحصل في الصين، حيث يختلط الاستهلاك المفرط للثدييات مع الطيور والحيوانات الأخرى؟! إنّ اختلاط الفضلات يخلق بيئة مناسبة للفيروسات. كلّ ذلك الاستهلاك المفرط ينطوي أيضاً على القلق. لم نعرف سابقاً الكثير من الظروف الماديّة المؤاتية كما هو الحال اليوم. ومع ذلك، لم يكن هناك مثل هذا الاكتئاب الذي نعيشه. هذا ما تقوله منظمّة الصّحة العالميّة. إنّ ميزانيّة الطبّ النفسيّ هي الأعلى من بين جميع الميزانيّات الوطنيّة. هل كان من الضروريّ تطوير التقدّم الماديّ على حساب هذه الكارثة النفسيّة؟

لأننا نمتلك تقنية مذهلة نشعر بأننا فوق كلّ شيء! وأننا نسيطر على كلّ شيء! وإذا واصلنا إساءة معاملة الحيوانات والطبيعة، فسوف نسيء معاملة البشر. وإذا واصلنا التكاثر المكثّف، حيث تمرض الحيوانات من الإجهاد، وتذبح بشكل جماعيّ، فإننا سوف نخلق البيئة المثاليّة لتطوير الفيروسات. وبذلك المعنى، إنّ

الفيروس لا ينتقل من تلقاء نفسه، نحن من نحمله.

تجعلنا التكنولوجيا والوسائل الحديثة أكثر عرضة للخطر؛ إنها تحسّن من الظروف الماديّة، لكنّها تخلق مشاكل لا يمكن السيطرة عليها. هذا صحيح، على سبيل المثال، بالنسبة إلى الشاشات التي تطوّر من تواصلنا بشكل لا يُصدّق! لكنها، في الوقت نفسه، تُدمّر علاقاتنا الإنسانيّة. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة إلى مُتوسّط العمر المتوقّع، والذي يزداد بفضل تقدّمنا التقنيّ، بينما تتزايد الأمراض والسرطانات والنوبات القلبية باستمرار. يُعدّ فيروس كورونا علامة جديدة على ضعفنا.

لمدة أكثر من 10000 عام، استحوذنا على الأرض، وطوّرنا الزراعة، وأنشأنا المساكن، وقمنا بتخزين الطعام. ومن ثمّ، أسهمنا من خلال تهيئة الظروف لولادة الفيروسات، ونشأة الأوبئة.

غالباً ما تبدأ الأوبئة من خلال الحيوانات. عندما تمّ اختراع الطاحونة الهوائية، استطعنا إنتاج أطنان من الطحين؛ ما سمح لنا بأكل الخبز طوال فصل الشتاء، ولكن- في الوقت نفسه- دخلت الفئران إلى المخازن مع البراغيث التي تسببت في مرض الطاعون! وفي القرن السابع عشر، انتشرت الأوبئة عن طريق الحرير الرائع. لقد اخترع الصينيون ذلك النسيج الساحر، ونقلوه على ظهور الإبل إلى أوروبا، وحملوا معهم زادهم من الطعام. وعندما وصل الحرير إلى أوروبا، كانت جميع القوافل قد ماتت من الطاعون. وعلى العكس، من أجل الوصول بسرعة أكبر، قاموا بنقل القوارب عن طريق أنطاكية (سوريا الحاليّة)، فانتقل الطاعون إلى مرسلية عبر مخزونهم الغذائيّ. لقد حمل الناس الفيروس معهم وهم يفرّون من المرض. لاحظوا مثلاً اليوم، كيف لشريحة لحم أرجنتينيّة، حلّقت حول الكوكب مرّتين قبل أن تصل إلى محل جزّار باريسيّ...!«.

بما أنّنا في حالة حرب، يدعو إلى البعض إلى إنشاء مجلس وطني للصمود على غرار المجلس الوطني للمقاومة! ماذا تظنون؟

«إنّها فكرة جيّدة. هناك بالفعل أشياء يمكن القيام بها. وأنا أستقبل اتّصالات وأتفاعل مع مؤسسات عدّة؛ لإيجاد حلول عمليّة لمشكلات العمل والإنتاج فيها في هذه الظروف الاستثنائيّة. يشارك السياسيّون أيضاً في مشروع الصُّمود هذا. علينا أن نخلق شبكة من مئات مدن الصمود، وأن نردم هوة اللامساواة، وأن

نكافح للحدّ من تدهور المناخ، ومن الهجرة، وأن نعمل من أجل الحفاظ على الموارد الطبيعيّة، وعلى تحسين نوعيّة الهواء. لذا، من الضروريّ تحديد الأساليب والإجراءات والأدوات التي ستجعل من الممكن تعزيز التكامل بين الدّيناميات الحضريّة والريفية، وتبادل الخبرات والموارد، والمشاركة في بناء الإستراتيجيات، التي سيستفيد منها المواطنون. من علامات التغيّر والتكيّف التي نتجت من تداعيات هذا الوباء، مثل: الحجر، ومنع السفر، إنّ المزارعين قاموا بالفعل بتطبيق طرق جديدة لتسويق الخضار، من خلال البيع المباشر من دون وسيط. وها هم لا يكتفون بالعودة إلى أعمالهم؛ بل يجنون المزيد من المال؛ لأنّهم تخلّوا عن الوسيط بينهم وبين المستهلك. كما أنّ هذا الأخير يسعد بشراء خضروات ذات جودة أفضل. لذا، سوف يتمّ إعادة تطوير الأسواق المحليّة، التي كانت حتى الآن عرضة للمنافسة من المتاجر الكبرى. كما أنّ المؤسّسات الحرفيّة أيضًا سوف تقوم على الأرجح بإعادة النّظر بكيفيّة تسويق إنتاجها، وتنويع أنشطتها، وإعادة تنظيم ذلك كلّه على المستوى الأوروبيّ بدلاً من الأسواق العالميّة».

مع هذا الفيروس التاجي، تعيد البشريّة التواصل مع مخاوف الماضي الكبيرة، هل هي عودة القلق الوجوديّ؟

«إنّه ليس قلقًا؛ إنّهُ خوف حقيقيّ. الخوف له هدف: إنّهُ أسد، إنّهُ عدوّ، إنّهُ البركان المُتفجّر.. القلق هو شعور: إنّهُ الشعور بأنّ الموت سيحدث، لكننا لا ندرك متى ومن أين؟ هذه المرّة لدينا عدوّ غير مرئيّ. بالنسبة إلى العلماء، يُعدّ فيروس كورونا خوفًا مستهدفًا، وفي هذه الحالة يكون فيروسًا مثل العديد من الفيروسات في العصور الوسطى، مثل الكوليرا، أو الطاعون الأسود. لكن بالنسبة إلى المواطنين الذين لا يعرفون ماهيّة الفيروس، إنّهُ الخوف الذي ينتشر، بل هو القلق؛ لأنّهم لا يعلمون من أين سيأتي الموت».

هل ستظهر مخاوف وصدّات جديدة؟

« تلك المخاوف والصدّات موجودة بالفعل. أنظر إلى خط الهاتف 3919 المُخصّص للنساء والعنف الذي يعانين منه. بقي ذلك الخط مشغولًا لأيام عدّة. الوجود الإنسانيّ هو الانفتاح، أمّا الحبس (الحجر) فهو الانغلاق. لذا، فأولئك

الذين اكتسبوا عوامل الحماية قبل الصدمة، سيستفيدون من الحجر أو العزلة الاجتماعية، كما أحاول أن أفعل، لاكتشاف المتعة النفسية للقراءة والكتابة. وأنا مندهش حقيقة من كثرة الاتصالات التي أتلقها: مكالمات هاتفية، ورسائل نصية من أصدقاء لم أراهم منذ عشرات السنين. أعتقد أننا نشهد استيقاظ نشاط التعلق. هناك أشخاص يستغلون العزلة الاجتماعية؛ للحفاظ على الروابط مع الآخرين، ولزيادة ثقافتهم وممارساتهم الجسدية أيضاً. أنظر إلى عدد ممارسي الرياضة الذي يتنامى يوماً بعد يوم. ولاحظ كيف يتسم هؤلاء لبعضهم بعضاً من بعيد، ثمّة إظهار للطف. قبل ذلك كان التدافع والخشونة، إنه بالفعل تغيير كبير.

وعلى العكس من ذلك، بالنسبة إلى الأشخاص الذين اكتسبوا أو عاشوا عوامل ضعف مثل المرض، أو العزلة، أو العدوان، أو الاغتصاب قبل الصدمة، فإن الحجر المنزلي سوف يوقظ لديهم آثار تلك الإصابة فيهم، كما رأينا في جميع دراسات الصدمات النفسية، وقد أخبرني علماء النفس أن الأمر قد بدأ، وأن نداءات الإغاثة، وطلب المساعدة قد انطلقت. لذلك، سوف يكون هناك انقسام في المجتمع بين أولئك الذين يتعاملون مع الاحتواء، من موقع الصمود، وأولئك الذين يشعرون بضرر أكبر؛ بسبب بنيتهم الهشة التي تعرّضت لعوامل الضعف التي أشرنا إليها سابقاً.

لكن كيف سيترجم ذلك كله ؟

«بكل بساطة من خلال المناقشات في الصمود. سوف تحلّ السياسات مشكلة الديون الاقتصادية لفرنسا، وبالتأكيد بمساعدة المتخصصين الذين سيتحدثون عنها بسهولة أكبر مني. كما سيؤدي الفلاسفة دورهم، فهل تستحقّ الفردية هذا الثمن؟ هل ستترك العائلات التي تلاشت أثراً قوياً بعدما استفادت من التقدم والازدهار؟ في البلدان التي يسودها السلام، على سبيل المثال، نلاحظ وجود 1% من المُصابين بانفصام الشخصية. في حين ترتفع تلك النسبة في البلدان التي تكون في حالة حرب، أو في حالة انهيار اقتصادي، إلى 4-3%. سي طرح أطباء علم النفس أسئلة على أنفسهم، وكذلك سيفعل الكتاب الذين سينضمون إلى جوقه مادحي الجسم الطبي، وسيكون هناك الكثير من القصص الرائعة عن مهنة الطب، وعن بطولات العاملين فيه. نحن نعيش في عالم من الكلمات والكتابات والرموز. لن نتمكن من استئناف الحياة وكأن شيئاً لم يحدث. علاوة على ذلك، لم نخرج

بعد من هذا الوباء. لا نعلم حتى الآن كم من الوقت سيستمر! لكننا نفكر بالفعل في الغد، وماذا نفعل هنا».

تُغرقنا هذه الأزمة الصحيّة في علاقة مختلفة مع الموت، ومع الولادة، وحتى مع الأطفال، كيف ننظر إلى كل هذا وتستحضره؟

«لقد اضطرت مفاهيمنا كلّها، وكذلك الصُّور التي كُنّا نحملها عن تلك المفاهيم. فها هم كبار السن يموتون وحدهم، وها هي ظروف الموت قد تغيّرت. لننظر إلى الدفن كيف يتمّ من دون حضور أحد من الأهل والأقارب والأصحاب! وذلك خلافًا لما نعرفه عن اجتماع من نُحبّ في مثل تلك المناسبة. كان الموت مثاليًا، ولم يعد اليوم كذلك!

كذلك بالنسبة إلى الاضطراب في ولادات الأطفال، فلم يعد مسموحًا للآباء الدخول إلى غرف الولادة؛ لأسباب تتعلق بالوقاية الصحيّة. وإذا كان من اللافت انخفاض عدد وفيات الأطفال؛ بسبب الظروف الحديثة للولادة، وتحسّن مستوى القابلات، فإن 25% من النساء الحوامل يتعرّضن للاكتئاب. يجب أن نركز على هذه المرحلة المحوريّة من حياة المرأة.

بالنسبة إلى الأطفال، هناك حلّان سيّان؛ الأول: هو أن لا نتحدّث عن الموضوع، والثاني: هو أن نتحدّث عنه. فما يدور حولهم هو مأساة لا يمكن الخروج منها! شاهد، أو استمع إلى الصحفيين على العديد من القنوات إنهم لا يفعلون سوى نقل القلق! لذا، علينا أن نتحدّث بطريقة إبداعية. هناك خطر لكننا سنحمي أنفسنا. سنمضي بضعة أسابيع معًا، ونعيد اكتشاف طقوس القراءة. يجب منع الأطفال من مشاهدة التلفاز وحمايتهم من الشاشات. عليك أن تشرح الأشياء وتجيّب عن الأسئلة. أن تقول: إننا عرفنا بالفعل أوبئة مماثلة، وإننا انتصرنا. وهذا يزيد من عوامل الحماية ويُعزّزها.

نحن نعلم ما يحدث في الصّين. إنّه أمرٌ مذهل وسحريّ تقريبًا! كيف اتّخذ الصينيون القرار بهجر الشوارع، ولم يعد بمقدورهم التحدّث فيما بينهم! لماذا تعتقد، من بين أمور أخرى، أنّ العديد من الباريسيّين تركوا أماكن إقامتهم للذهاب إلى الأرياف؟! لا شكّ أنّهم فعلوا ذلك بحثًا عن الفضاء الواسع من جهة، ولاستعادة الحوار مع أسرهم من جهة ثانية».

هل هذا الفيروس هو عودة الطاعون؟

«نعم، هذا هو بالضبط! عندما ضرب الطاعون مرسيليا في العام 1348م، لم يعرف الناس سبب إصابتهم بالكوليرا ولماذا يموتون، لم يعلموا سبب الداء الذي يقتلهم! بالنسبة إليهم، كان شيئاً غامضاً! لقد رأوا الموت من دون معرفة أصله. لذلك، كانوا يفرون من مرسيليا، وكانوا يتجهون شمالاً، وكان بعضهم يحمل الكوليرا معه. ما النتيجة؟ بعد ذلك بعامين فقط؛ أي في العام 1350م، توفي واحد من كل اثنين من الأوروبيين».

المغادرة بأسرع وقت ممكن، هل هو ردّ فعل للبقاء؟

«إنه ردّ فعل الدّعر، الاستجابة الغريزية للخوف من الموت. لكن العلماء يقولون لنا اليوم: قبل كل شيء، لا تتنقل».

كيف سنعيش الحجر، كأننا في سجن أو في عتلة مُرّحّب بها؟

«في البداية؛ أي في الأيام الأولى، ستكون مرحلة استراحة، لكن بعد أيام قليلة، سيكون الحجر مللاً. والملل، سنحاول كسره بكلّ الوسائل، بالشاشات، والهاتف، والإبداعات غير المتوقعة. وقد بدأنا بالفعل رؤية بعض الأشخاص الذين يتطوّعون لخدمة الآخرين، فيعرضون خدماتهم للتسوّق من أجل كبار السنّ، أو لأخذ الحيوانات الأليفة للنزهة، كما نشهد بالفعل مساعدات متبادلة لمحاربة الملل، والخطر غير المرئي، الذي هو الفيروس».

هل يتّجه المجتمع نحو المزيد من التضامن أم أنّ كلّ واحد يريد أن

ينجو بنفسه؟

«خلال كلّ أزمة، سواء كانت طبيعيّة (حريق، فيضان، وباء)، أو ثقافيّة، أو انهيار اقتصادي، أو حرب، نشهد تغييراً في الثقافة. وهذا سيحدث في غضون أسابيع قليلة، بعد الكثير من الملل، والكثير من الوفيات، والكثير من الخراب، والكثير من المعاناة. وستنهار مؤسسات عدة؛ وقد أقفلت، على سبيل المثال، جميع المكتبات، كما أنشأت أمازون للتو 100000 وظيفة برواتب عالية».

عندما ينتهي الفيروس، لن تتمكن العديد من المكتبات المدمرة، التي تضم الآلاف من الموظفين المتوقفين من العمل، من إعادة فتح أبوابها. وسنشهد الأمر نفسه في مختلف المجالات».

بعد الوباء هل سيهزم المجتمع أم سيتحصن بالاختبار؟

«هذا يعتمد على نتيجة الوباء. إذا حجرنا أنفسنا جيداً، فسوف يكون هناك فقط رقم تقديري 20000 أو 100000 حالة وفاة، أما إذا قيدنا أنفسنا بشكل سيئ، فسوف يكون هناك مليون قتيل. في كلتا الحالتين، سوف تتأثر بالمصيبة التي تحدث للآخرين، وسنتكر في النهاية ثقافة جديدة أكثر إنسانية».

الحجر قاتل للحريّة، والحصول على تصريح للخروج إلى الشارع أمر مقبوت!

«أعتقد أنّ القيد مطمئن، والمجهول هو الذي يزعجني. يُقال للناس، «إذا خرجت بموجب تصريح، وبقيت في المنزل، وغسلت يديك، وعطست في مرفقك، وما إلى ذلك... فإنك تزيد من فرصك في البقاء على قيد الحياة»! نحن نعطيهم رمز البقاء. سيكرس الناس أنفسهم لاحترام ذلك الرمز، وسيخلق فيهم أمل البقاء. نحن نرى في المجتمعات الحرّة والسهلة، مثل المجتمعات الأوروبية، الكثير من حالات الانتحار، لأنّ الناس لم يعد لديهم رمزاً. يُعدّ المنع كبنية عاطفية مطمئنة، المنع ليس العزل. العزل هو الديكتاتورية، حيث لا يحقّ لأحد أن يفعل أيّ شيء!».

الحجر هو أيضاً سجن

«نعم، لكن نحن ملزمين على فعله. وعلى كلّ حال، أصبحت مجتمعاتنا قلقة؛ لأنّها فقدت قواعد العيش المشترك، وقد تضخمت الفردانية إلى حدّها الأقصى. ولهذا، عاود العنف الظهور مجدّداً بجميع أشكاله، عنف الاغتصاب، والعنف بين العصابات، والعنف غير المبرر. عندما عملت كطبيب نفسي ممارس، كان لديّ الكثير من الأطفال الجانحين الذين قاتلوا طوال الوقت، والذين سرقوا، والذين لم يحترموا أيّ شيء وكانوا غير سعداء للغاية. كان أولئك الشباب من التعاسة؛ بحيث انخرطوا في الجيش، أو في الشرطة، أو في الفيلق الأجنبيّ. والالتحاق

بالفيلق يفترض رمزية شديدة الوحشية. لقد قبل الشبان ذلك القانون، وكانوا سعداء. لكنهم عندما تقاعدوا، وكان الواحد منهم في عمر 32 أو 33 عامًا عادوا إلى الشعور بالاكئاب وإلى الانتحار مرة أخرى».

هل أصعب جزء في الحجر هو غياب التواصل الإنساني؟

«بالطبع، ولكن حتى قبل الوباء كان تواصلنا الإنساني أقل وأقل. إن الشاشة التي تحسن التواصل تضعف العلاقات الانسانية. عندما نتواصل عن طريق الشاشة، أو عبر الرسائل القصيرة، كما يفعل الشباب، تتدهور العلاقات الإنسانية وتتضرر. لقد رأيت 40% من المراهقين لا يردون على الهاتف عندما يرون والديهم يتصلون بهم، لكنهم يقولون إنهم يحبون والديهم. إنهم يحبونهم، لكن لم تعد هناك علاقة معهم. أعتقد أنه بعد الوباء سيحدث انفجار في العلاقات والجمعيات وأماكن الحوار.

إن هذه المرحلة من عدم تنظيم النقل والمجتمع والعلاقات الإنسانية والمدارس والمستشفيات... تشبه الفوضى الحقيقية. ومع ذلك، سواء في علم الأحياء، أو التعليم، أو الحضارة، نحن ملزمون بعد الفوضى بإعادة تنظيم المجتمع».

من أجل تحمّل الحجر، يُغني الإيطاليون على شرفاتهم. هل هذه استجابة جيدة؟

«خلال أوبئة العصور الوسطى في العام 1348م، وفي العام 1720م، حصلت ردود أفعال مختلفة. كان هناك من يشكر الله على موته. و بعد الزلزال الذي وقع في هايتي في العام 2010م، رأيت مواكب من أشخاص يرتدون ملابس بيضاء ويحملون المشاعل، وينشدون: «شكرًا لك يا إلهي على إرسال الزلزال إلينا حتى ندرك أننا لم نعبدك بما فيه الكفاية. بفضل هذه المأساة، سنحبك أكثر.

مئتان وخمسون ألف قتيل في دقيقة واحدة، وشكرًا لك يا إلهي! وهناك أيضًا أنواع أخرى من ردود الفعل التي لوحظت في التاريخ، مثل أولئك الذين، خلال أوبئة الطاعون في الضواحي، كانوا يمارسون الجنس، ويشربون الكحول من دون أي قيود، ويرقصون قبل الموت. لقد حصل الأمر نفسه في زمن الرعب، في أثناء الثورة الفرنسية».

بما أنه لم يعد بإمكاننا مغادرة المنزل، هل سيؤدي الأمر إلى بؤس في العلاقة الجنسية؟

«في الوقت الحالي، نعم، لكن هذا سوف يخلق حاجة جنسية أوسع، إن الحجر سوف يؤدي إلى التفكير بالتعلق وليس بالجنس العابر. سوف يعود الجنس إلى رومانسيته، بعدما بات الجنس منذ سنوات مسألة عابرة، وفقد أي شعور بالحنان. سوف نعيد اكتشاف التعلق، بالأمير الشاب وفتاة الأحلام. عندما يبدأ كل شيء من جديد، سوف نعيد اكتشاف روابط المودة بين الأزواج والعائلات.»

كيف تصمد مع الحجر في المنزل؟

«كل شخص سوف يجد شيئاً يمارسه؛ الجيتار، وألعاب الطاولة، والقراءة، والموسيقى، والكتابة... سوف يجد كل شخص آلية دفاعية ويستمتع بها إلى حد ما؛ لأن الملل هو حافز جيد جداً للإبداع.»

وهناك متعة في معرفة أننا نتشارك الصعوبات نفسها مع الآخرين وهي جزء من أواصر التضامن. لقد اتحد الفرنسيون في بداية الحروب في العام 1914م وفي العام 1939م، ضد عدو مشترك. وكانوا ينشدون: «سننال منهم، سننال منهم» ولكن عندما اندلعت الحرب، فرض الواقع نفسه وكانت الكارثة.»

في خطابه الأسبوع الماضي، قال إيمانويل ماكرون ست مرات: «نحن في حالة حرب»، هل هذا النوع من الكلام العسكري جيد؟

«نعم؛ لأنه يشجع الناس على الاتحاد. ماكرون مُحقّ تماماً، نحن في حرب مع الفيروس، وللفوز في هذه الحرب، هناك تعليمات الحجر التي تعمل، وقد استخدمها الصينيون، وبعد شهرين، بدأ منحى المرض في التراجع.»

في إنجلترا، لم يطبق الحجر، والحانات والمطاعم والمسارح مفتوحة!

«سوف نعرف في غضون أشهر قليلة ما النهج الصحيح، إذا كان عدد الوفيات في إنجلترا أقل منه في أوروبا، فسوف يكون هذا دليلاً على أنه كان من الخطأ إجراء الحجر. ولكن إذا كان عدد الوفيات في إنجلترا أكثر من بقية العالم، فذلك لأن بوريس جونسون سوف يكون مجرماً.»

هل سينتهي به المطاف في محكمة لاهاي؟

«أمل أن هذا ما ينتظره».

كيف تعيش شخصيًا مع الحجر؟

«الحجر سوف يحزني من الرحلات التي خططت لها، والتي لا تُعدّ ولا تُحصى، والمحاضرات التي لا حصر لها، والتي كان عليّ أن ألقها، وفجأة، سوف يكون لديّ المزيد من الوقت للقراءة والكتابة. وبما أن لديّ حديقة، حسنًا، فسوف أعمل من أجل حديقة أخرى.»

إذن، أنت تتعامل مع الفيروس؟

«ما زلت قلقًا على الأشخاص الذين أحبهم وعلى نفسي أيضًا؛ لأنني أنا وزوجتي في الفئة العمرية الضعيفة. سنحترم الحبس، لنا مصلحة فيه! أنا قلق أيضًا على أطفالي وأحفادي.»

هل قمت باختبار لمعرفة ما إذا كنت مصابًا بالفيروس؟

«لا، لم يعد هناك فائدة. الآن، إمّا لدينا مرض شبيه بالإنفلونزا ينتقل من تلقاء نفسه، أو لدينا مشكلة ستجبرنا على الذهاب إلى وحدة العناية المركزة. وأنا جزء من الفئة العمرية التي قد لا تخرج حيّة من وحدة العناية المركزة.»

ألست قلقًا بشكل خاص من الموت؟

«سأبلغ من العمر 83 عامًا. لذا، فإنّ الموت قريب بالنسبة إليّ، ولا يمكنني إلاّ الرضا والعيش بأفضل ما أستطيع، ما دمت على قيد الحياة، فأنا لست ميتًا! ولا أستطيع إلاّ محاولة العيش بشكل كامل في أثناء الانتظار.»

إذن؛ إنّ كلّ ما علينا فعله هو ابتكار طريقة جديدة للعمل والعيش

معًا؟

«نعم، وهو مشروع كبير. يجب أن نطوّر طرقًا أخرى، ولقاءات أخرى للعيش معًا. وأن نبتكر طريقة جديدة لوقف مذبحه الأطفال مع ثقافة السرعة، وسطوة

المال. ولنعد إلى التعامل مع الرياضة على سبيل المثال كهواية، وكمجال للتلاقي تساعد على الصمود، وليس للتنافس في خدمة الرأسمالية. علينا العودة إلى الأمور التي كنّا نمارسها سابقاً؛ أي المطعم قبل والمطعم بعد، والرياضة قبل وبعد... وعلينا أن نفكر بسرعة في تغيير طريقة حياتنا في عالم الإفراط وفي مقدمتها الإفراط في الاستهلاك والحركة. و خلاف ذلك، إن الأسباب نفسها سوف تنتج الآثار نفسها. وعلينا أن نتوقع وباءً جديداً في غضون عامين... قد لا يعجب هذا الأمر الكثيرين لكنه على المستوى الإنساني سوف يكون أجمل الانتصارات!».»